تمثّلات السلطة في رواية ''قلب الليل'' لنجيب محفوظ على ضوء النقد الاجتماعي (السلطة الأبوية، والمادية، والدينية أنموذجاً)

Representations of Power in the Novel "The Heart of the Night" by Naguib Mahfouz in the Light of Social Criticism (Patriarchal, Material, and Religious Authority as a Model)

صادق البوغبيش
طالب دكتوراه/ جامعة خليج فارس/ إيران

رسول بلاوي
أستاذ مشارك/ جامعة خليج فارس/ إيران

محمد جواد پور عابد
أستاذ مشارك/ جامعة خليج فارس/ إيران

ناصر زارع
أستاذ مشارك/ جامعة خليج فارس/ إيران

Sadegh Alboghbeish
PhD student\ Persian Gulf University\ Iran
sadegh8258a@yahoo.com

Rasoul Balavi
Associate Professor\ Persian Gulf University/ Iran
r.ballawy@pgu.ac.ir

Mohammad Javad Purabed
Associate Professor\ Persian Gulf University/ Iran
m.pourabed@pgu.ac.ir

Naser zare
Associate Professor\ Persian Gulf University/ Iran
nzare@pgu.ac.ir

هذا البحث مستل من أطروحة دكتوراة بعنوان "صورة الآخر الغجري في الرواية العربية (دراسة اجتماعية- نفسية)".

تاريخ الاستلام: 13/ 3/ 2022م، **تاريخ القبول:** 13/ 5/ 2022م.
E-ISSN: 2616-9843
P-ISSN: 2616-9835

Received: 13/ 3/ 2022, **Accepted:** 13/ 5/ 2022.
DOI: 10.33977/0507-000-061-005
https://journals.qou.edu/index.php/jrresstudy

الملخّص

أخذت الرواية المعاصرة دوراً وظيفيّاً لمقاربة الأوضاع السياسيّة، والدينية، والاجتماعية، وقام الروائي المعاصر ببسط أفكاره من خلال النصّ الروائي والعلاقة القائمة بين المجتمع والنصّ الواقعي، إذ إنّ أوصاف المجتمعات أخذت حيّزاً واسعاً في الرواية قياساً بباقي الأنواع الأدبية، ودعا الروائيّون إلى معرفة المجتمع والخلاص من العرقلة الدينية المتشدّدة، والاجتماعية، والسياسية.

يأتي هذا البحث وفق المنهج الوصفي – التحليلي والاجتماعي ليبيّن تمثّلات السلطة في رواية "قلب الليل" إذ إن تظهر السلطة القوميّة، والصراع بين القوميّة المصرية العربية وجماعات الغجر من جهة، وسلطة الطبقات والوضع المادّي من جهة أخرى، ثمّ السلطة الدينيّة التي تلعب دوراً مهمّاً في الرواية، إذ نرى طرد الشخصيّات من العائلة لسببين: السبب الأوّل هو السلطة القوميّة، والسبب الثاني هو السلطة الدينية، إذ إنّ الشخصيّة الرئيسة تخالف التمثّلات الدينية والتقاليد العائلية، وفي الأخير السلطة السياسية وهي التي تبطش بأموال الآخرين، ورغم معرفتها لصاحب هذه الأموال ووارثها، إلّا أنّها تمنعه حقّه ويُطرد، ففي نتائج هذا البحث سنرى تأثير سلطة هذه التمثّلاث على حياة الشخصيّات، ودور كلٍّ من هذه الأمور في عرقلة الحياة.

المفردات المفتاحية: تمثّلات السلطة، السلطة القومية، السلطة الدينية، السلطة السياسية، رواية "قلب الليل"، نجيب محفوظ.

Abstract

The contemporary novel took a functional role in approaching the political, religious, and social situations. The contemporary novelist simplified his ideas through the fictional text and there is a relationship between society and the realistic text, as the descriptions of societies took a wide space in the novel in relation to the rest of the literary genres, and the novelists called for knowledge of society and salvation from extremist religious, social, and political obstruction. In this research, we will show the social representations and their manifestations in the novel "The Heart of the Night" by the Egyptian novelist Naguib Mahfouz.

This research comes according to the descriptive - analytical approach to show the representations of power in the novel "The Heart of the Night", where the national authority appears, and the conflict between Egyptian Arab nationalism and gypsy groups on the one hand, and the power of classes and the material situation on the other hand, then the religious authority that plays an important role in the novel. As we see the expulsion of personalities from the family for two reasons: the first reason is the national authority, and the second reason is the religious authority, as the main character contradicts religious representations and family traditions, and in the end, the political authority is the one that stifles the money of others, and despite its knowledge of the owner of this money and its heirs, but it prevents him. In the results of this research, we will see the impact of the authority of this triangle on the lives of the characters, and the role of each of these matters in obstructing life.

***Keywords**: Representations of authority, national authority, religious authority, political authority, Qalb al - Layl, Naguib Mahfouz.*

1 ـ المقدمة

أصبح السرد والجنس الروائي هو الأكثر انتشاراً ورواجاً بين الأدباء والقرّاء، إذ إنَّ الرواية أصبحت تتماشى مع العصر الحديث، وتأخذ كلّ ما هو جديد فتلتقطه وتعكسه في الحبكة، وأصبح كلّ ما يجول في فكر الإنسان من سياسة، وفلسفة، ودين، وقومية، من اهتمامات الرواية والروائي، ولا شكَّ في أنّ الأديب قد "حوّل الأديب كثيرا من الخطابات التي يكتبها إلى خطابات سياسية ودينية، جرياً وراء السائد محاولاً أن يصبغ نصوصه ببعض السمات الدينية والسياسية باعتبار قارئه متشبّعاً بها، أو محاولة منه في تبليغ هذا القارئ المفترض والمتحوّل –عبر الزمان والمكان – والمتعدّد بعضاً من تلك الرُّؤى" (خرفي، 2013، 144) . فالأمر إذن يتعلّق بمدى مواكبة المضمون الروائي للعصر، فمضامين السلطة القومية، والدينية، والسياسية من أكثر المضامين تناولاً واستهلاكاً في الحقل الروائي المعاصر، مسايرة للنقاشات الفكرية والفلسفية الدائرة بين مختلف التيّارات الفكرية. يقول نجيب محفوظ عن أهميّة هذا الأمر: "أعجبني بصفة خاصّة المنهج العلمي الذي يتحقّق به أكبر قدر من الدقّة والموضوعية والنزاهة، هل نستطيع أن نفكّر بنفس الأسلوب في سائر شئون الحياة؟ لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة بالدقّة والنزاهة الموضوعية بنفسها " (محفوظ، 2015، 87) . وقد تروم هذه الورقة البحثية رصد تمثّلات: السلطة القومية، والسلطة الدينية، والسلطة السياسية في رواية (قلب الليل) لنجيب محفوظ التي تصوّر (جعفر الراوي) الشخصية المغامرة في عوالم معلومة ومجهولة، وخارقة وعاقلة، ومسكرة ليبقى الشيخ الموقّر موضعاً للسؤال المعرفي/ الفلسفي باعتبار تركه ملذّات الحياة وخوضه تجارب دينية، ثمّ يطيع الشهوة ويتزوّج من غجرية، ثم عالم السكر والنبيذ والغناء حتّى يدخل عالم السياسة ثمّ الاختلاف مع أستاذه بغرض الامتلاك، بيد أنَّه لم يكشف عن نوعية هذا الامتلاك، هل هو امتلاك هدى صديق زوجة جعفر التي أحبّت أستاذه سعد كبير، أو امتلاك النظريّة السياسية التي اختلفا على إثرها.

1 ـ 1. أسئلة البحث

حاولت هذه الدراسة ترد عن هذه الأسئلة:

- ما تمثّلات السلطة في رواية "قلب الليل"؟
- كيف كانت هذه التمثّلات وتاثيرها في شخوص الرواية؟

1 ـ 2. خلفية البحث

الدراسات السابقة من أهمّ الخطوات المنهجيّة للبحوث الجديدة، إذ هي بمثابة حجر الأساس الذي ترتكز عليه أيّة دراسة، ومن أهمّ الدراسات التي تناولت موضوع تمثّلات السلطة التي أفادت موضوعنا بشكل كبير، نذكر على سبيل المثال ما يلي:

عبدالقاسم ترابي، وسيد حسين سيدي (2014) ، كتبا مقالاً بعنوان "روايات نجيب محفوظ في ضوء النقد الاجتماعي مع عناية خاصة برواية أولاد حارتنا" نشر في مجلة إضاءات نقدية. يستنتج الباحثان بأنّ الكاتب قد ركّز على قضايا مختصّة بالفقر والمرأة وإصلاح المجتمع، لا بإحداث ثورة على النظام السياسي الحاكم وتغيير أنظمة الحكم الجائرة؛ وإنّما يتمّ ذلك عبر آليات أخرى أهمّها توعية الناس وتثقيفهم بسلاح العلم.

عبدالله أوغرب (2016) كتب بحثاً تحت عنوان ""تجليات السلطة الدينية في الرواية الجزائرية قضاة الشرف لعبدالوهاب بن منصور أنموذجا" نشر في المؤتمر الدولي الثاني عشر في الجزائر، يقوم الباحث بتحليل الشخصية الأولى في الرواية الذي كان يدعى "شيخ الحضرة" وما يمارس من طقوس لفرض سلطته على الآخرين، التي سمّاها مفاتيح امتلاك السلطة الدينية كالحكمة، والمبايعة، وتحقّق النسب الشريف، لكي يصل إلى غرضه وهو امتلاك السلطة.

جقاوة الشيخ ولعلى بوكميش (2018) نشرا بحثاً بعنوان "السلطة الأبوية داخل العائلة الجزائرية"، نُشر في مجلة الحقيقة. يستنتج الباحثان أنّ رغم التغيير الاجتماعي، جراء التحوّلات الاقتصادية والثقافية، لا زالت العائلة الجزائرية محتفظة ببعض خصائص العائلة التقليديّة وعاداتها، فسلطة الرجل، وإن خفّت حدّتها، إلّا أنّها لا تزال واضحة في الأسرة.

هناك مقال بقلم طيبي بوعزة (2020) بعنوان "تمثّلات النص الروائي الجزائري للخطاب الديني مقاربة سوسيولوجية لمقاطع سردية مختارة" نُشر في مجلة ميلاف للبحوث والدراسات. يرى الباحث في هذا البحث أنّ التوظيف الروائي للخطاب الديني قد يسير في اتّجاه آخر غير إثراء المتن الروائي، ففي كثير من الأحيان يكون التوظيف بحثاً عن نوع من المصداقيّة والمشروعية للأفكار المطروحة.

والبحث الذي بين يدي القارىء تمثّلات السلطة في رواية "قلب الليل" إذ إنَّ الروائي، يصف للمتلقّي تمثّلات السلطة في مصر الحديثة والأمور التي تساند هذه المهمّة. ثمّ إنّ هذه الرواية من ضمن أهمّ روايات نجيب محفوظ، ولم تُدرس من هذا الجانب سابقاً.

1 ـ 2. تلخيص الرواية

في بداية رواية "قلب الليل" نرى عجوزاً في دائرة الأوقاف للمطالبة بأملاك يدّعي بأنّها لجده، وكان الموظف ممّن يعرفون العجوز منذ أيّامٍ طفولته، فشرح له أنّ هذا الأمر غير ممكن لأنّ الوقف لا يُعاد لأيّ طرف من العائلة حتّى ولو ثبت بأنّه حفيد الشخص الذي أوقف هذه الأملاك، لكن العجوز يصرّ على أن يعيد الأملاك ولا يريد معونة الوزارة التي لا تتجاوز الخمسة جنيهات، وخلال هذه المراجعات أصبحت علاقة حميمة بين الموظّف والعجوز الذي عرّف نفسه بأنّه "جعفر الراوي" ثمّ طلب منه الموظّف أن يسرد قصّته وكيف الأمر وصل به الى السجن حتّى ينطلق جعفر من سرد قصّة حياته بداية من عهد الأسطورة ووفاة والده وهو صغير ثم بعد ذلك عاش مع أمّه في الحارة رغم أنّها عيشة فقر، ولكن كان حنان الأم أهمّ بالنسبة إليه، حتّى ماتت أمّه وتكفّل الجد "سيد الراوي" برعايته. الجد المحافظ الصوفي يفرض معيشة معيّنة على الطفل خلاصتها أنّه يجب على جعفر حفظ القرآن وإتمام الدروس الابتدائية، ودخول الأزهر، والمحافظة على الصلاة، وعاش جعفر فترة زمنية ليست بقصيرة حتّى التقى بمروانة الغجرية، وهام بها وسعى إلى الحرية وإلى تجربة جديدة معها فهجر عيشة القصر وترفها وتزوّج بمروانة وأنجب أربعة ذكور حتّى طلّقته مروانة ورجعت إلى عشش الترجمان، وهي منطقة الغجر، ثمّ عمل مع محمد شكرون صديق الطفولة في فرقة للتواشيح والطرب ومن خلال هذه الحفلات تعرّف على هدى صديق المرأة الثرية والجميلة ومن الطبقة المحافظة، وتزوّج من هدى، وأنجب وصار ذا قيمة في المجتمع ودخل عالم السياسة وقد أراد نشر فكره وآرائه، لكن في غمرة من الغضب اختلف مع سعد كبير، أستاذه في علم السياسة وأرداه قتيلاً، دخل السجن ومات جدّه، لما خرج من السجن وجد أنَّ كل شيء تغيّر وعاد إلى قصر جدّه فوجده أطلالاً ومنذ ذلك الوقت وهو يسكنه ويعيش على الهامش في الحياة بعد أن صال وجال فيها. شخصيات الرواية ليست كثيرة وأهمّها: موظف ادارة الوقف وهو الذي يروي الحدث، وجعفر الراوي الشخصية الرئيسة، وأم جعفر وكان اسمها سكينة، وجدّ جعفر واسمه سيد الراوي والشخصية الأهم بعد جعفر، وطاهر البندقي قائد الحفلة وأستاذ الطرب وهو الذي يدير حفلات التواشيح في بيت الراوي، وبهجة خادمة بيت الراوي، ومروانة الغجرية حبيبة جعفر الأولى، وأم مروانة، والعجوز الغجري، ومحمد شكرون صديق جعفر منذ الطفولة، وهدى صديق زوجة جعفر الثانية، وسعد كبير أستاذ جعفر والمقتول على يده.

2. تعريف النقد الاجتماعي

لا مراء في أنّ الأعمال الأدبية لها صلة وثيقة بالواقع الاجتماعي، ومن هذا المنوال نرى نوعية الأدب الاجتماعي؛ إذ إنَّه "الأدب الذي تنعكس فيه القضايا الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية والأخلاقية. والنقد الاجتماعي هو منهج يدرس هذه الانعكاسات في الأدب" (أحمديان، 2014، 39) . يقول (زرّينكوب) : "النقد الاجتماعي يدرس تأثير الأدب في المجتمعات كما يدرس تأثير المجتمعات في الأدب. بتعبير آخر: إنّ النقاد الاجتماعيين يدرسون العادات والتقاليد والعقائد والنهضات التي انعكست في الأدب وهي في نفس الوقت وليدة الآثار الأدبية" (زرينكوب، 1982، ج1، 41) .

لا شك في أنّ علاقة الأدب بالمجتمع علاقة وطيدة و"الأدب من حيث هو تعبير إنساني وجدناه منذ بداياته الأولى شديد الارتباط بالمجتمع والأيدولوجية ولكن الذين جعلوه منهجاً هم الماركسيون الذين جعلوا الأدب آلة لمآربهم السياسية وطالبوا الأدباء بتوظيف أدبهم لخدمة الماركسية ممّا أدّى إلى الخلاف والاصطدام العنيف بينهم وبين الشكلانيين". (أحمديان، 2014، 39) . ويرى غرين "إنّ المنهج الاجتماعي هو منهج تقليدي لأنَّ دراسة الأدب من المنظار الاجتماعي، نقد اجتماعي وهذا النوع من الدراسة كان معروفاً منذ القدم" (غرين، 2006، 268) .

يجب الفصل بين علم الاجتماع الأدبي والنقد الاجتماعي للأدب "فهناك علم اجتماع أدبي يهتم بتفسيره نشأة الأدب وماهيته ووظيفته على اعتبار أنّه شكل جمالي له دلالات اجتماعية وربّما اهتمّ هذا النوع بإطلاق أحكام قيمية، وهناك علم اجتماع أدبي يختلف عن النقد الاجتماعي للأدب من حيث اهتمامه بالبحث عن صورة المجتمع داخل الأعمال الأدبية" (ماضي، 2005، 132) . وهناك عناصر خصّصت لهذا المجال، فالباحثة الاجتماعية (مدام دي ستال) (1766 – 1817) ترى بأنّ كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية وجغرافية ما، حيث يؤدّي وظائف محدّدة بها، ولا حاجة إلى أي حكم قيمي، فكل شيء وُجد لأنّه يجب أن يوجد" (حافظ، 1981، 67) .

أمّا العناصر التي اختارها (هيبوليت تين) فهي عناصر "البيئة، والزمن، والعرق" و"قد طوّر (هيبوليت تين) (1828 – 1893) أفكار (دي ستال) واستفاد من تقدّم الدراسات الاجتماعية، وأضاف إلى عنصري الزمن (الذي قال به فيكو) والعامل الجغرافي الاجتماعي (الذي قالت به دي ستال) عنصر الجنس أو العرق مكوناً بذلك ثالوثه المعروف: البيئة، والجنس، والزمن" (ماضي، 2005، 133) . والثالوث الذي اختاره (هيبوليت تين)، هو من أولى المحاولات التي تربط الأدب والحياة والواقع الاجتماعي، **فقد شرح (هيبوليت تين) العوامل التي تؤثّر في الأدب وهي:**

أ. الجنس أو العرق أو النوع: ويقصد به الخصائص القومية، إذ يرى أنّ أدب أمة ما يختلف عن أدب أمة أخرى، وهذا يعود إلى تباين الخصائص القومية التي تعني لديه تأثير المناخ والتربة والحوادث الجسام والدوافع الغريزية والعناصر الوراثية والنزعات الدفينة والعادات العدائية والملامح الجسدية.

ب. البيئة: فالإنسان في بيئته خاضع لأوضاع حتمية، هي التي تتحكّم بالأدب والحياة العقليّة، فقد كان (تين) مؤمناً بحتميّة البيئة، وهو يؤكّد تأثير المناخ في المزاج الإنساني.

ت. الزمن أو اللحظة التاريخية: وهو ما يجعل مفهوم البيئة متحرّكاً ويعني به روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريخ التراث" (ماضي، 2005، 69) .

2 ـ 1. التزام الكاتب الاجتماعي

من الطبيعي جدّاً أن يلتزم الكاتب المتعهّد بالواقع الاجتماعي "فكلّ تغيّر إذن في علاقات الإنتاج أو في البناء الاقتصادي الاجتماعي سيتبع بالضرورة تغيّراً في الرؤية لمفهوم المجتمع، والإنسان واللغة، والأدب والقيم.. إلخ وهو ما يؤدّي بالضرورة إلى تغيّر في الأشكال الأدبية من حيث الموضوعات والأساليب والأهداف، وهذا يعني أنّ الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي" (ماضي، 2005، 72) . فالأديب الملتزم يبحث عن نوعية أدبية ومادة دسمة لكي ينقلها بحذافيرها فهو "لا يكتب لنفسه؛ كما أنّه لا يكتب ليبرز لنا مهارته الفنية وبراعته اللغوية، وإنّما يكتب بشكل فني عن مشكلة اجتماعية تقلقه وتؤذيه" (أحمديان، 2014، 41) . ومن هذا المنطلق يصبح الأدب وثيقة تاريخية لأنّ "الأدب يقدّم صورة للعصر والمجتمع، والأعمال الأدبية وثائق تاريخية واجتماعية" (قصاب، 2007، 36) .

إنّ "العلاقة بين الأديب ومجتمعه علاقة جدلية، فالأديب يتأثّر بمجتمعه ويؤثر فيه، تصنعه ظروفه وأحواله الاقتصادية والفكرية والسياسية وإنّ رؤية الأديب الفكرية، وفلسفته عن الحياة والكون، إنّما تتبلوران بتأثير المجتمع والمحيط والتربية. والأديب يؤثر في مجتمعه، فيسهم في تطويره وإصلاحه، وقد تحمل كتاباته بذور الثورة والتغيير وصياغة مشاعر الناس وأحاسيسهم على نمط معين" (قصاب، 2007، 37) . كان نجيب محفوظ كاتباً متعهداً وملتزماً بقضايا اجتماعية، ولم يكتب للتسلية فحسب بل حاول نقل الواقع المعاصر في مصر و"إنّ البنية الفنية التي أسّسها نجيب محفوظ لا تعدّ مؤشراً لدراسة تطوّر الرواية العربية فحسب بل هي دليل يقود إلى دراسة التطور الاجتماعي والفكري في مصر الجديدة" (ترابي وسيدي، 2014، 131) .

3. مفهوم السلطة

للسلطة تعاريف عدة وأهمّها التعريف الذي جاء به (ماكس فيبر) فيقول: "السلطة هي القدرة على إجبار وإلزام الغير بفعل ما لم يكن ليفعله من تلقاء نفسه" (بوريكو، 1986، 372) . وهناك من ربط السلطة بأسس وأشكال، إذ إنّ أهم الأسس الشكل الترابطي والتراتبي. الشكل الترابطي: ويكون على شكل تعليمات وبرامج. والشكل التراتبي: يكون على شكل أوامر. (الشيخ، وبوكميش، 2018، 735) . والسلطة تتواجد من أجل تنظيم المجتمع وبسياق ممنهج مؤثّر "فالسلطة هي سياق مقصود يؤثّر بفاعلين على الأقل، وهي بالتالي علاقة اجتماعية عامّة تماماً تهدف إلى تنظيم المجتمع ومختلف الجماعات التي تسودها من أجل ضمان أحسن تسيير واستمرارية" (الشيخ، وبوكميش، 2018، 735) .

3 ـ 1. السلطة الأبوية

في رواية "قلب الليل" نرى السلطة الأبويّة تحدّد مسار الرواية إذ إنّ "سيد الراوي" جدّ "جعفر" هو الذي يفرض سلطته، ومن يخالف هذه السلطة سيُطرد من نعيم قصره كما فعل بابنه إبراهيم والد جعفر، وكانت سلطة الجدّ التي يمارسها تحظى بالشرعية والطاعة والتنفيذ، فمفهوم السلطة الأبوية "هي القوة التي يمارسها الأب على بقية أفراد الأسرة التي تحظى بالقبول، إذ ينفّذ بقية الأفراد ما يتّخذه الأب من قرارات وما يصدره من إيعازات وأوامر" (حطيم، 2013، 12) . تتحدث رواية "قلب الليل" عن عائلة الراوي، والأحداث التي ألمّت بأفراد هذه العائلة، وكيف دفعت السلطة العائلية الأفراد إلى التشتّت. ففي بداية الرواية، نرى اعتزاز جعفر الراوي بالعائلة رغم طرده وأحواله التعيسة:

"قدم نفسه بفخار دون حاجة إلى ذلك قائلاً:

– الراوي، جعفر الراوي، جعفر إبراهيم سيد الراوي..

لم تخف عليّ أسباب اعتزازه بالاسم. وأكّد ذلك التناقض الحاد بين منظره التعيس وبين لهجته المتعالية" (محفوظ، 2015، 5) .

عائلة الراوي من العائلات الثرية والمتمكنة في المجتمع الذي شيّده نجيب محفوظ للمتلقّي، لهذا كان انتماء الأفراد إلى هذه العائلة بمثابة الفخر والاعتزاز. كما نشاهد الحوار الذي دار بين الموظّف وجعفر، عندما يسأله عن أسباب طرده من العائلة، وكيف جحده جدّه وحرمه من حقّه في الإرث:

"لن أكف عن القتال حتى أنال حقي الكامل من تركة جدي

اللعين! فلم أتمالك من الابتسام وقلت: ليرحمه الله جزاء ما قدم للخير. فضرب حافة مكتبي بقبضته المعروفة، وقال: لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد. –ولماذا نسيك؟ . قبض على ذقنه دون أن يجيب. شعرت بأنَّ الزوبعة ستنقشع عاجلاً أو آجلاً، وأنَّ التماس الإعانة سيكتب. ما أكثر المتسولين عندنا من حفدة الباشوات والأمراء والملوك! ويقيني أنَّه لا يجحد أحد ذريته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر؟! " (محفوظ، 2015، 8) .

في هذا المقبوس الذي نُقل من الموظف نرى تمثّلات السلطة الأبوية ومؤشراتها لأنّ جعفر يشتم جدّه قائلاً: "جدّي اللعين"، ثمّ يبيّن للمتلقي بأنَّ الجدّ قد نساه: "لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد"، ثمّ الموظف يذكر عدداً لا حصر له من أفراد عائلات متمكّنة ومن ملوك وباشوات منشغلين بالتسوّل ويطلبون المعونة، وربَّما أكثرهم كجعفر، خالفوا أمراً من أمور العائلة. ثمّ نقرأ سلطة الجدّ بعد وفاته كما يعبّر عنها جعفر:

"وقفٌ خيري! حرمان من الميراث! هكذا فعله دائماً مزيج من الخير والشر، ها هو ذا يمارس سلطته ميّتاً كما مارسها حياً، وهأنذا أكافح في موته كما كافحت في حياته... وحتى الموت... " (محفوظ، 2015، 9) .

يروي جعفر أحواله وسلطة سيد الراوي جدّه لأبيه؛ إذ إنّه نفاه من العائلة عندما كان حياً؛ لأنّه تزوج من مروانة الغجرية، ورغم أنّ الجدّ قد توفي، ولكنَّه يفرض سلطته على جعفر، لأنَّه ترك ميراثه إلى وزارة الوقف لكي لا تصل يد جعفر جنيه من هذا الميراث، ويتعجّب جعفر من هذه السلطة وكيف إنّه ميّت ولكن تأثيره على حياته باقية. كان والد جعفر قد طُرد من العائلة بسبب زواجه من امرأة لم يقبل بها الوالد:

"أحب أمي في الوقت الذي كان جدي يدّبر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر، وتزوج بها دون مبالاة... على أي حال انفجر غضب الراوي، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه، وخُيّل إلى كثيرين أن سلسلة الراوي قد انعدمت وانتهت، ولاشكَّ أنَّ أبي لم تكن تهمه سلسلة الراوي في شيء، كان يريد أن يحقّق ذاته بطريقة أخرى، ولا أخفي عنك أنني أعجبت به وأسفت لموته الذي لم أحزن له في حينه لصغر سني" (محفوظ، 2015، 32) .

كانت السلطة الأبوية في عائلة الراوي والقوانين الصارمة عند الأب جعلت أفراد العائلة تتّخذ مصيراً للحرية رغم صعوبته، فقد كان زخماً بين الأب والأولاد، رغم أنّ الأب كان يريد بسلطته الحفاظ على نسق العائلة وحفظ ميراثها، ولكنَّ الأولاد لم تطق هذه السلطة والحياة التي رسمها لهم سيد الراوي، وقد خطّت مجرى حياتها بيدها وتزوج من أحبَّ. فالجدّ يرى بأنّ أمّ جعفر هي السبب فيما حصل، بيد أنّ جعفر الراوي يرى أمّه قد ظُلمت:

"كان جدّي يدعوني إلى شهود مجالسه العامرة بصفوة رجال الدين والدنيا، وكثيراً ما سمعت القوم وهم ينوهون بأجدادي في مواقفهم المأثورة حتى امتلأت فخرا بأولئك الرجال الممتازين الذين عرفوا بالعلم والجود ومكارم الأخلاق، بقدر ما تنغص صفوى لغياب ذكر والدي، والظلام الذي يغشى أصل أمّي، وكلّما تقدّم بي العمر عاودت التفكير في أمّي بمرارة أشد وأعمق، واقتنعت بأنَّ مأساتها – ومأساة والدي بالتبعية – حادثة غير معقولة ومناقضة للدين الذي أتعلمه وأمارسه، وأنَّ جدّي يتصرف أحياناً تصرف من لا دين له. لقد ذهبت أمّي، ولكنَّها أورثتني دينها ومأساتها، وسوف يرسبان في جانب من نفسي طويلا، ربّما أطول مما تصورت" (محفوظ، 2015، 34) .

كان الهمّ الأكبر عند الجدّ هو الحفاظ على الإطار الذي رُسم للتعريف بعائلة الراوي، لهذا يأتي بمن يمجّدون سلسلة الراوي ويفتخرون بماضي رجالها، ولكن الطفل الذي فقد أمّه وأبيه كان يرى زخماً وفراقاً وتشتّت بين الجدّ والعائلة، فكيف طرد والده لسبب تافه وهو زواج ممّن أحبَّها وأحبَّته، لهذا كان يعاني من هذه السلطة الأبوية وعرف المأساة وهو طفل. وكان جعفر يسأل جدّه عن والده والخطيئة التي ارتكبها واستحقَّ النفي من العائلة بسببها:

"أكانت خطيئة أبي الوحيدة أنَّه تزوج من أمّي؟ " (محفوظ، 2015، 35) .

لم يفهم جعفر الخطيئة التي ارتكبها والداه، ولم يدرك الجدّ، كيف كانت خطيئة فلذة كبد سيد الراوي هو الزواج! كما كانت تمرُّ به لحظات تغيّر مذاق حياته عندما يتذكّر والديه والمعاناة التي تكبّداها، فيثور الغضب الكامن في تجاويف وجوده، حتى يرى جدّه شيطاناً في ثوب ملاك:

"ولكن كانت تمر بي ساعات سوداوية، تتسلل إليّ من مكامنها فتغير مذاق الحياة، وتغشاني سحب الذكريات السود، فأفكّر بحياة النفي التي عاناها أبي، ومأساة أمي ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند ذلك يثور غضبي على جدي، وأحاسبه في الخيال حساباً عسيراً، ويتبدى لي شيطانا في ثوب ملاك" (محفوظ، 2015، 43) .

نُفي والد جعفر بسبب السلطة الأبوية لأنّه تزوج من امرأة من طبقة غير الطبقة التي توسّمت به عائلة الراوي، ويرى جعفر أنّ هذه السلطة لا يملكها إلا شيطان. لم يكن جعفر ووالداه فقط من تحمّل المعاناة والألم في هذه الرواية، بل نرى محمّد شكرون الذي كان يعاني من العرج أيضاً، يشكو من الحياة ومن علاقة أبيه الغامضة، إذ يرى عرجَهُ عاهةً سبّبها له والده في ساعة غضب:

"علاقة الأب بابنه علاقة غامضة على الرغم من وضوحها السطحي، أحيانا يتدفق منها الحنان وأحيانا تتجمد بالقسوة، عرجي هذا الذي تراه ما هو إلا عاهة صنعها أبي في ساعة غضب" (محفوظ، 2015، 43) .

محمّد شكرون الصديق المقرب لجعفر الذي عاش معه منذ الطفولة يعاني هو أيضاً من السلطة الأبوية؛ فقد ضُرب حتّى شلّت رجله. عندما طلب الجدّ من جعفر أن يتزوج من الفتاة التي يختارها هو له، يثور غضب جعفر على غرام جده بالتسلط والقهر، فيقول:

"ناجيت أبي وأمي طويلا، وثار غضبي على جدي بلا حساب، إنه لا يريد أن يكفر عن جريرته وما زال غرامه عنيفا بالتسلط والقهر. جدي.. إني أرفض. – ترفض نعمتي؟ – أرفض القهر. –لو كان مني؟ – لو كان! – أنت عاق، تخون الجمال والنقاء، في سبيل ماذا؟ – الحرية! – راعية الغنم. – الدم والتشرد والهواء النقي. – إنه الجنون الذي يخرج به الممسوسون من بيتي العتيق. – النعيم الحق في الجنون. – إنك ابن والديك. – وإني أعتز بذلك إلى الأبد. – نصفك يود الانتقام مني. – لاأريد أن أفكر فدعني أفعل. –

والجبة والقفطان؟ – سأخلعهما من توي. – إذن كفرت" (محفوظ، 2015، 53 – 54) .

كان الجدّ يريد تزويج جعفر من فتاة تحمل اسم عائلة متمكنة وتُعرف بميراثها المادي والعلمي، ويريد أن يفرض سلطته على جعفر وعليه أن يتلقّى الدستورات من غير اعتراض، ولكن شخصية جعفر كانت ترفض الخنوع لهذا صارح الجدّ ورفض تزويجه من الفتاة التي يريدها الجدّ، لهذا يشبّه جعفر بأبيه لأنّهما رفضا الخنوع. ثمّ محمّد شكرون يخشى هذا الأمر، ويرى بأنّ عدم الخنوع لطلب الجدّ، والوقوف في وجهه، سوف يحرم جعفر ميراثه، فيقول لجعفر:

"ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحّاذاً؟

– هذا محتمل" (محفوظ، 2015، 55) .

فقد عاش جعفر حياة كئيبة، بين الغناء والنبيذ، بعدما تركته مروانة، لذا أشفق عليه محمّد شكرون، وطلب منه الرجوع إلى جدّه، وإلى النعيم الذي عاش فيه قبل أن تسيطر عليه تلك الشهوة الجنونية، وتغيّر مسير حياته، لكنَّه رفض:

"رفضت المهنة الدينية رفضا لا رجوع فيه، الحياة التي رسمها جدي لي مرفوضة تماما، وهو لن يقبلني

– لعلّه يمنحك حريتك الشخصية؟

– كلا، إنك لا تعرفه كما أعرفه، وإني أرفض أن أعرض نفسي لتجربة ذليلة" (محفوظ، 2015، 73) .

السلطة الأبوية التي وصفها نجيب محفوظ، سلطة قاسية تأخذ كلّ شيء ممّن يرفض الخنوع إليها، فقد نرى تأثّر الشخصيّات جميعها من هذه السلطة، فقد تأثّر والد جعفر وأمّه من هذه السلطة، وتأثّر جعفر بنفسه، ونرى محمّد شكرون أيضاً من ضحايا هذه السلطة، وحتّى "هدى صديق" تأثّرت بالسلطة الأبوية رغم حرّيتها وتدبير أمورها. وكانت محور هذه السلطة أغلبها يدور حول الزواج.

3 – 1 – 1. الزواج

التطرّق إلى موضوع المرأة والأمور الخاصّة بها له أهمية كبيرة في الأدب، كونه يعالج قضية مطروحة، طالما تحدثت عنها الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية "كما استحوذت المرأة على القلوب والعقول أمّاً، وأختاً، وزوجة" (صالح، 2009، 9) . فأمر الزواج هو أهمّ مسألة لدى العائلات العربية، فالزوجة التي يختارها الوالد أو الوالدة هي التي تعرف ببنت الحلال:

" – قررت أن أزوجك من بنت الحلال" (محفوظ، 2015، 53) .

وهذا الأمر يأتي من السلطة الأبوية؛ إذ نرى (ايفانز برجرد) يعرّف السلطة الأبوية بأنّها "مجموعة القرارات والإجراءات التي يتّخذها الأب التي من شأنها أن تنظم شؤون الأسرة والقرابة وتحدّد مستقبل الأفراد في الأسرة" (حطيم، 2013، 12) . ففي السلطة الأبوية في مفهومها عند سيد الراوي، الفتاة التي يختارها هي التي تصلح للزواج وغيرها تسبّب الفساد. وعندما تزوّج جعفر راعية الغنم الغجرية، التي كانت تدعى "مروانة"، جاء يطلب رضا جدّه، لكنَّه لم يلتفت إليه الجدّ، ثم يذهب لوداع "بهجة" فيقول:

"وكان وداع بهجة أليما ودامعا، وقد اقترحت أن تطلب لي نقودا، ولكني صارحتها بأن لي من المدخرات ما يجاوز مائة الجنيه، وجعلت تبكي وهي تقول: – الأحزان تبدأ في هذا البيت مع الزواج" (محفوظ، 2015، 62) .

لم تعترض بهجة على قرارات السيد الراوي، وترى سبب هذا التشتّت في اختيار الزوجة، وهذا النسق المضمر في الفرد كعضو في المجتمع، الذي "هو المؤسسة التي تضمّ كلّ المؤسسات الأخرى وتحتويها هذه الأخيرة التي تستمدّ قوانين سلطتها أصلاً من هذا المجتمع الذي يعتبر محيطاً يفرض سلطته على الأفراد ويجبرهم على السير وفق نظام وقوانين وقيم ومعايير وعادات وتقاليد المؤسسات التي تمثل كيانه" (الأخرس، 1997، 33) . ليست عائلة الراوي، هي الوحيدة التي لا تقبل الزواج إلّا من أشخاص ذوي حسب ونسب، بل حتّى عائلة آل صديق كذلك تهتم لهذا الأمر اهتماماً بالغاً، فعندما أراد جعفر الراوي الزواج من هدى صديق نقرأ:

لا تنس التضحيات المتوقعة من ناحيتها، حقّا إنها سيدة نفسها، وأغنى الأسرة، ولكن حتماً ستتمزق أواصر قربى وعلاقات أسرية بسبب الزواج، لا شك في ذلك.. وإنها لشجاعة لأنها ستصمد في وجه ذلك كله" (محفوظ، 2015، 80) .

شخصية هدى صديق ليست كشخصية "سكينة" أم جعفر، أو "بهجة" خادمة قصر السيد الراوي الجدّ، إنّما هي امرأة مستقلة وشجاعة، وهذا ما يرنو إليه الأدب الاجتماعي، حيث يبحث عن التغييرات في شاكلة المجتمعات "فالرواية توصف عموماً بأنَّها نصّ التحولات الاجتماعية، أي أنَّها خطاب تجريبي يؤسّس، للتحوّلات الاجتماعية، فالتغيرات في حياة المرأة هو إلى حد نتاج منظور سردي" (سعاد، 2015، 3) . فقد كانت هدى صديق امرأة قوية، وذات شخصية صامدة، ويظهر هذا في حوارها مع جعفر، حين قالت له:

"جدك والميراث لايهمني" (محفوظ، 2015، 82) .

خلق الراوي شخصيات نسائية ضعيفة وأخرى قوية، في تسلسل أحداث روايته، ليعرب عن الفرق الشاسع بين هاتين الشخصيتين للمرأة، ويبيّن للمتلقّي بأنّ الثروة لم تخلق القوّة، فها هي مروانة، رغم أنّها من عائلة فقيرة وغجرية تعيش في عشش الترجمان، إلّا أنَّها كانت قوية، وذات سلطة، كأمّها، أما قوّة الشخصية لدى هدى صديق، تتضاعف بوجود ثروتها، لتظهر لنا جبروت المرأة الحامية للرجل:

"أما من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟ إني ضائع، طريد، شبه عاطل، شبه جاهل، لا مستقبل لي، فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟ لكنها كانت هي في الواقع التي تحب حبا حقيقيا، حبا بلا مبرر، فوق التبريرات والأفكار، ولعل هذا الحب لايخلو من رغبة في انتشالي من الضياع وإعادة خلقي من جديد، فكما توجد في الحب سادية وماسوشية توجد كذلك أحيانا أمومة ورغبة حميمة في الإنقاذ" (محفوظ، 2015، 83) .

يسعى الروائي اختيار شخصيات متنوعة وحقيقية لكي يعبّر عن الواقع الاجتماعي الذي يعيشه، ومن تلك الشخصيات المهمّة في الرواية، دور هدى التي أعادت جعفر إلى الحبكة وترسيم قوّة ثانية بجنبها، رغم أنّ جعفر لم يكن على حال، وهذا الأمر جعل جعفر منبوذاً ومطروداً وشحّاذاً بعين الكثيرين ومن ضمنها عائلة هدى. انتهى الزواج هذا، بتمزيق أواصر أسرة هدى صديق، وقطع علاقتها

بالعائلة، وطردها منها:

"هذه أفكار عن الحب الذي ربطني بهدى فانتهى بعقد قراننا بعد أن مزق أواصر أسرتها... وتم الاحتفال في بيت الحلمية – بيت هدى – فلم يشهده من أسرتها أحد، واقتصر على الجارات" (محفوظ، 2015، 83 – 84) .

العوائل التي ترفض الزواج من أشخاص معنيين، تبيّن موقفها في حفل الزفاف، وعدم الحضور للحفل بمعنى أنّ هذا الزواج بالنسبة لهم مرفوض كما فعلت عائلة هدى، وهذا الأمر ناتج عن السلطة الأبويّة ودور الطبقة الاجتماعية في تعريف الأسرة وتحديد إطارها. وبالرغم من انفصال هدى عن العائلة، إلّا أنّها جلبت الراحة والسعادة لجعفر:

"مارست حياة رائعة، استعادت من ناحية سعادتي في أسطورة أمي، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء الذي نعمت به في بيت جدي... لقد انتقلت من الفوضى والمخدرات إلى حياة زوجية نقية وتحصيل للمعرفة بلا حدود، في نظام دقيق أفقدني الكثير من مظاهر الحرية السطحية، ولكنه فتح لي أبواب الحرية المضيئة التي يسمو بها الإنسان على ذاته بالوعي، الوعي الذي يسعد به الإنسان الحر حتى وإن أبصر بقوة أكثر مأساة الحياة الخافية" (محفوظ، 2015، 86 – 88) .

في هذا المحور نرى عدة تمثّلات للسلطة الأبويّة، أولاً سلطة الوالد على الأولاد وما أن يُرفض طلب العميد يتمّ نفي الرافض، ثمّ سلطة الطبقة الاجتماعية ودور المال في تحديد قيمة العائلة، ثمّ سلطة المرأة على الرجل كما أظهرت هدى سلطتها على جعفر إذ اعتاد هذه السلطة إلى عدة أمور منها فارق السن، فقد كانت هدى أكبر من جعفر سناً، ثمّ مالك البيت، كما كانت هدى صاحبة البيت وصاحبة الفضل كما يعترف جعفر ويقول: انتقلت من الفوضى إلى حياة نقية. لذا فالمسائل الاجتماعية المهمة، كالحياة الزوجية، هي إحدى أهداف الرواية حيث يريد الروائي إيضاح هذا الأمر في المجتمع المصري.

3 – 1 – 2. الانتقام

كان انتقام جعفر الراوي من جدّه، يهدف لزوال ظل سلطة الجدّ على الأسرة، التي أخذت مساندة من لدن المجتمع والأفراد، وهذه أمور طبيعية في مجتمعاتنا الشرقية. ذلك أن السلطة التي يمارسها الأب "تلقى الدعم والمساندة والتأييد من لدن المجتمع ولاسيما الدولة وهنا تكون السلطة مطاعة ليس من قبل أفراد الأسرة فحسب، بل من بقية أفراد المجتمع المحلي؛ لأنَّ هؤلاء يعرفون تمام المعرفة بأنَّ سلطة الأب تلقى الدعم والتأييد من عادات وتقاليد المجتمع ومن الدولة والقانون والدين والأعراف. لذا تكون هذه السلطة فاعلة ومؤثرة في إدارة شؤون المجتمع" (الشيخ، وبوكميش، 2018، 736) . كان جعفر الراوي يتحين الفرصة لينتقم لأبيه من جدّه:

"وفكرت في أمور جديدة لأول مرة، فسألت بهجة: – متى ماتت جدّتي؟ فترحمت عليها قائلة: منذ حوالي عشرين عاماً. – أكان لمأساة أبي دخل في ذلك؟ – الأعمار بيد الله وحده. –ولمَ لَم يتزوج جدّي بعدها؟ – هذا شأنه. وتساءلت: ترى هل كان لجدّي حياته الجنسية الخاصة؟ وارتعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسي: إنَّه سيقرأ خواطري في عيني كالعادة وسرعان ما تقع مأساة جديدة، وقلت لنفسي أيضاً: إنَّ جانباً من نفسي يتعقب جدّي بالانتقام وإنَّ حبّي له ليس خالصا تماما، وإنَّني لا أريد أن أنسى تماما مأساة والدي، وذلك أنَّني ما زلت ألح على بهجة حتى اعترفت لي بأنَّ أمي كانت ابنة دلالة تتردد على بيتنا، وسألتها: إن كان عُرف عنها أو عنهما شيء من سوء، فأجابت بالنفي وقالت لي صراحة: جدّك لا يعترف بالناس المجهولين! " (محفوظ، 2015، 45 – 46) .

جعفر الراوي يرى الانتقام الحقيقي هو الذي كان يخشاه الجدّ، وكان يخشى ضياع اسم العائلة واضمحلال السلسلة، واندحار اسمها الذي لطالما عُرف برجالها الذين أجادوا الحياة العلمية والأدبية والسياسية في مصر، لهذا قرر جعفر، يحرم جدّه من الحفيد الوحيد، وهذا أمر كان أشدّ انتقاماً للجدّ. يرى جعفر أنّ الانتقام من جدّه لا يأتى الّا بحرمانه من وريثه الوحيد:

"تألمت لأنَّ العمل الفذ يحتاج إلى شهود، وسعدت لأنَّ إقدامي مما يعز تصديقه، أريد ومن حقي أن أريد أن يعترف بي كإنسان غير عادي، إنسان لا يستطيع أي إنسان أن يهجر النعيم الذي كنت فيه بالبساطة التي هجرته بها..

– بدافع الحب وحده؟

– الحب لا يكفي؟ الحب هو الجنون خالقا!

– ألم ترغب أيضا في حرمان جدّك من وريثه الوحيد؟

– مأساة والدي لم تفارقني" (محفوظ، 2015، 58) .

كانت رغبة الانتقام تأتي من النسق المضمر الذي عانى منه والده وهو طرده من العائلة ونفيه حتّى مات موت الغرباء ومعاناة أمّه التي ماتت بسبب الفقر والحرمان، لهذا لا يريد أن ينعم جدّه بحفيد، فنرى سلب الجدّ من الحفيد وتركه في القصر وحيداً. ثمّ أنّ الانتقام ليس من الجدّ وحده، هو ما يرنو إليه جعفر، بل نراه يريد الانتقام من مروانة ويجد رغبة طارئة في ذلك، إذ يقول:

"في تلك اللحظة كنت أشعر بأنَّ ثمة شخصا قد ضحك عليّ، قد جرعني مقلبا.. وأسأل نفسي عما حدث. أو أنظر إلى مروانة بذهول وأجد رغبة طارئة للانتقام منها. ما معنى ذلك؟ كأنَّني أمقتها فجأة وبلا مقدمات" (محفوظ، 2015، 65) .

جاء الانتقام من مروانة لأنّها سلبت حرية جعفر وجعلته يعيش حياة روتينية، فهو الذي يمتلك روحاً لا حصر لها، فكيف حبّ مروانة جعله يحدّد نفسه بإطار خاص، لهذا كان انتقامه من مروانة هو تركها وخوض ملذّات الحياة بين الغناء والسكر والطرب، حتّى ملّت هي من هذه الحياة وتركته وحيداً، فقد كان جعفر لا يطيق الإطار المخصّص له.

3 ـ 2. السلطة القومية وتحدٍّ عربي/ غجري

نشأت القضية القومية في البلدان العربية، جراء تمخّض العرق العربي، وجلبت هذه الأنا والذات الآخر المتغير، فتارة آخر أمريكي، وتارة أخرى نرى الآخر الانجليزي والفرنسي، ثم أنّ مسألة الطبقات جعلت انقساماً بين القومية العربية سيّما الطبقة الإقطاعية والطبقة الكادحة. في رواية "قلب الليل" لم تكن الهويّة عند "سيد الراوي" انتماءً إلى القومية العربية أو إلى الوطن، بل جلّ ما يعنيه ويكدح من أجل إحقاقه، هو هوية الأسرة والسلطة الكاملة عليها. فإذا كان زواج والد جعفر من بنت دلالة، هو السبب في طرده من

العائلة وحرمانه من نعيمها، وتحمل جميع تلك المعاناة، فكيف بجعفر وقد تعلق بغجرية ترعى الغنم:

"كنت أسير بصحبة محمّد شكرون في أطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان. تنحينا جانبا لنوسع للقافلة، رأيت المرأتين، وهما أم وابنة غالبا، صورة واحدة متكررة، ترتدي جلباباً أسود، متمنطقة بزنار، حافية القدمين، ومتلفعة بشال أسود، وبرقع فضفاض تطل من فوق حافته العينان، وبأساور مغزل" (محفوظ، 2015، 46) .

كان جعفر الراوي شخصية متقلبة الأحوال، يسعى إلى خوض تجارب مختلفة، ومن تلك التجارب التي خاضها وغيّرت مسار حياته، تعلّقه بمروانة الغجرية، التي طرد بسببها من نعيم جده، فبعد أن تفجرت ينابيع المغامرة في قلب جعفر، وأخذ يتابع مروانة وأمها، بصحبة صديقه محمّد شكرون، نراه يصف ما ألمّ به في الحوار الذي دار بينه وبين صديقه:

"لم أشعر بتعب، لم أرحم عرج صاحبي، سرت بقوة الجنون والسكر وتفجرت في قلبي ينابيع المغامرة بلا حدود، وتتابعت أقوال محمّد شكرون وشكاياته: – سامحك الله..

– ماذا حل بك؟

– البنت منتبهة إلى متابعتك لها..

– إنَّهم غجر وأفظع من الشياطين..

– قل لي بالله ماذا تريد على وجه الدقة؟

أخيرا رأينا القافلة وهي تدخل معكسر عشش الترجمان وشعاع الشمس يتقلص من ساحتها" (محفوظ، 2015، 47 – 48) .

معسكر عشش الترجمان، هو الحي الذي يسكنه الغجر في ضواحي القاهرة، فيصف جعفر الراوي هذا الحي بمعسكر الشياطين لوجود الغجر فيه، حيث يختار لهم هذا الوصف نتيجة للتصورات السلبية السائدة لدى العامة حول الغجر. "اختلفت تسميات الغجر في أزمنة مختلفة ومدن متمايزة، غير أنَّها ارتبطت بالتصورات السائدة لدى العامة عنهم وتتمحور حول معنى موحّد يتبلور بأنَّ الغجر هم: المشعوذون، داكنو البشرة، اللصوص، السحرة، المتسولون، والفئات المنحطة في المجتمع، والكفرة وحاملو الأمراض" (حيدر، 2008، 7) . كما يردف كلامه عن الغجر، واصفاً أناسها بالتوحّش، وطابع البداوة البعيد عن الحضارة والمدنيّة، قائلاً:

"مودّعا أكواخها المصفحة وأناسها المتوحشين وطابع البداوة والنفي الذي يفصل بينهم وبين المدينة" (محفوظ، 2015م: 48) .

بما أنّ الغجر لا ينتمون إلى منطقة معينة، ولا قومية خاصّة، ويحبذون السكن في ضواحي المدن، وعدم الاختلاط بأهلها، لهذا نرى الكثير من الروائيين يصفون أحياء الغجر بأوصاف تختلف عن باقي الأحياء، وربّما كان هذا الاختلاف في الأوصاف، بين حي الغجر وغيره، نتيجة ترحالهم الدائم من مكان إلى آخر، وامتلاكهم الدواب، كالحمير والخيل. وأيضاً محمّد شكرون يصف مروانة من خلال البيئة والحي التي تعيش به:

"لم يفارقني شكرون ليلتها فسهر معي حتى منتصف الليل في البيت، وجعل يتأملني طويلا وكأنَّه لا يصدق وسألني: – ماذا دهاك؟ فقلت له بأسى: ما تراه بعينيك. – لا أفهم. –ليكن إنّي مجنون بالبنت... –أيحدث ذلك بهذه السرعة؟ – لقد حدث. –لكنَّها راعية ومن بيئة شريرة.. لقد تحريت بما فيه الكفاية، وأقول لك إنَّ أولئك الناس مع كلّ شر إلا الشر الذي يسيل لعابك عليه " (محفوظ، 2015، 48 – 49) .

بيئة الغجر لطالما في الرواية العربية وُصفت بالشر كما نرى في رواية "قلب الليل" والشر الذي يرى ينتمون إليه شر السرقة، والقتل، والمخدرات، أمّا من ناحية الجنس والزواج فلا حرج في هذا الأمر كما يبيّن للقارئ من خلال هذه الجملة: "إلا الشر الذي يسيل لعابك عليه" وعادة الغجر لا يأبون بمسألة الشرف، والجنس يُعدُّ من أهمّ المصادر للرزق عندهم والغجر "يأخذون من الإثارة الجنسية فرصة للتجارة، فيعملون قوادين للفسق والرغبات الجنسية على الرغم من أنَّهم في بعض البلاد يحافظون على عفّتهم الجنسية" (نبيل، 1980، 36) . محمّد شكرون، يرى هذا الحبّ وهذه العلاقة تجلب لهم الفضيحة لهذا يتساءل:

"كيف نعمل مع تجنب الفضائح" (محفوظ، 2015، 49) .

هذا الأمر يأتي من مبحث القومية؛ إذ أنَّ محمّد شكرون يرى العلاقة مع الغجر تجلب الفضيحة بالنسبة للعرب "ففي العلاقات الاجتماعية هناك تخوّف حقيقي من الوقوع تحت طائلة احتقار الجار أو الصديق أو الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها الشخص، فالفرد ليس له الحق في أن يقرر أي شيء بمفرده وإنّما هناك مجموعة من القواعد والقيم هي التي تحكمه وتحكم سيرته في حياته العامة والخاصة" (بوتفنوشت، 1984، 53) . هذا الأمر بالنسبة للعرب، أمّا الغجر فقد كانوا يفتخرون بأنفسهم وبقومهم، كما تفعل مروانة:

"ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها كلسان من اللهب، ومعتزة بنفسها وبقومها.. ها هي ذي مروانة قوية، متحدية، سليطة اللسان، طويلة اليد كأنَّما خلقت لتقاتل" (محفوظ، 2015، 63 – 67)

الغجر يحتقرون أولئك الذين يكرّسون حياتهم لجمع المال والتفاخر بالأنساب والأوطان، ولا يرى الفرد الغجري أي مسألة تفاخر بهذه الأمور. ويعرّف مروانة الغجرية بهذا التعريف لأنّها غجرية والنساء الغجريات هي التي تكافح لأجل الحياة. المرأة الغجرية هي أقوى من الرجل الغجري، لأن المجتمع الغجري يعتمد على النساء أكثر من الرجال و"إنّ الغجر يعتمدون على النساء في معيشتهم" (الحديثي، 1979، 172) . وكانت لا تحبّ بيتاً غير بيوت عشش الترجمان:

"فقلت محزوناً: أهذا جزاء من أعدَّ لك البيت والأثاث؟ فصاحت بي: إني أكره رائحة البيوت! " (محفوظ، 2015، 67) .

مروانة الفتاة الغجرية التي تزوّجت من جعفر بعدما عاشت فترة وجيزة مع جعفر فضّلت أن تترك الحياة الزوجية وترجع إلى أهلها الغجر، لأنّها لا ترى هذه الحياة، حياةً كانت تبحث عنها، وإنّ رجال عشش الترجمان أفضل بكثير من زوجها. فمن هنا تظهر طبقة الأنا الغجرية والآخر العربي.

3 – 2 – 1. الأنا الغجرية والآخر العربي

بما أنّ الفتاة الغجرية هي التي لعبت دوراً بارزاً في حياة جعفر الراوي وتقابل العرق العربي والعرق الغجري في الرواية

فيجب أن نبيّن أنّ الغجري كيف كان ينظر للعربي. كانت أمّ مروانة ترى في جعفر شراً:

"وربط كوب اللبن بيننا برباط حريري قاتل، ومن شدّة نشاطها لمست أناملها وأنا أتناول الكوب، وقلت لها:

ـ أنت كريمة يا مروانة! فحبكت الخمار حول رأسها وهي ترمقني بشيطنة، فقلت وأنا أذوب في كلامي: ما أجمل عينيك! وقلت أيضاً وهي تمضي: ما أجيء هنا إلا من أجلك! وكفت الأم عن الغزل وقامت. تناولت حصاة من الأرض ورمتها بعيداً صوب الجبل. ورأتني أنظر إليها متسائلا، فقالت: وسيلة حكيمة لصد الزواحف والحشرات

فقلت بارتياب: الله خير حافظا..

فقالت بحزم: ولكن علينا أن نخاطب الشر بلغته.. (محفوظ، 2015، 50 – 51) .

كان جعفر يذهب إلى خارج المدينة لكي يلتقي بمروانة، وكانت أمّها معها، رغم أنّ جعفر كان محترماً ولم يسء إلى مروانة، إلا أنّ أمّها كانت ترى في جعفر شراً لأنّه عربي وما يراه الغجر من العرب ليس بخير. والغجري لا يهمّه نسب العرب ولا حتّى المهن التي يمتهنونها:

"مضينا إلى العجوز الجالس أمام كوخه وأمّ مروانة واقفة بين يديه.. فقالت أمّ مروانة نيابة عنه:

– إنَّه يرحب بكما. فقال العجوز يخاطبها بعد أن لكمها في ظهرها: لأنّك أنت توافقين عليك اللعنة.

فقال محمّد شكرون: صاحبي من أصل كريم.

فبصق العجوز قائلاً: طظ

فقال محمّد شكرون محرجاً: وهو يعمل...

– ولكن العجوز قاطعه: لا يهمنا العمل أيضاً!

– أخلاقه..

فقاطعه العجوز: ولا تهمنا الأخلاق!

فقال شكرون وهو يتحلى بمزيد من الصبر: بكلّ إيجاز نريد كريمتكم على سنة الله ورسوله. فضحك العجوز عن فم خال تماما وقال: مع ألف سلامة... تكلم عن المهر.. (محفوظ، 2015، 60 – 61) .

كان الغجري في هذا المقبوس يرى للآخر العربي بعين احتقار، لأنّ العربي يرى في الحسب شيئاً من الجبروت، وهذا ما لا يعني به الغجري، ثمّ أنّ العمل أيضاً لا يعني به الغجري لأنّ الغجر تتغير مهنهم حسب الترحال وحسب المكان، وبما أنّ مسألة زواج جعفر من مروانة مسألة منتهية سابقاً كما أشار العجوز قائلاً: "لأنَّك أنت توافقين عليك اللعنة" فأراد تعيين المهر فحسب. وكانت مروانة ترى الغجر وحدهم رجال، ولا يوجد رجال غيرهم:

"قلت لها مرة: للرجل احترامه.

فقالت لي: وللمرأة احترامها. ثم قالت بوحشية: لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان" (محفوظ، 2015، 67) .

صوّر لنا نجيب محفوظ في عدّة مشاهد من روايته بأنَّ المرأة الغجرية كمروانة مستهترة بالرجال غير رجال الغجر وذلك من خلال المشهد الذي صور فيه جعفر ومروانة يتحدثا عن تربية الأولاد ومن خلال ذلك كانت مروانة ترى رجال عشش الترجمان وحدهم رجال. وعندما اشتدّ خلاف جعفر ومروانة لأسباب كثيرة منها أنَّ جعفر كان يمنّ على مروانة بسبب البيت والأثاث، طلبت منه الانفصال، ولكن جعفر يريد أولاده ومروانة ترد عليه:

"تحدتني بنظرة باردة وهي تقول: يجب أن نعيد النظر في حياتنا. أقول لك صراحة إنَّه من الظلم أن نكلف هذا البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك... أريد أن أذهب إلى أهلي.

تماسكت رغم حنقي وتساءلت: ألا تعجبك الحياة في هذا البيت؟

فأجابت بقوة: كلا، أنت تتوهم أنَّك صاحب فضل، هذا هو نقصك.

ـ أظَّنني ضحيت بالكثير.

– إنّي أولى الضحايا!

– اسمعي

ولكنّي أمسكت تجنبا للشجار، فصاحت: لقد كرهت هذه الحياة حتى الموت!

فنفخت قائلاً: الأولاد.. الأولاد..

– من حقي أن آخذهم معي.

– لكي ينشئوا في عشش الترجمان؟

– لكي ينشئوا رجالاً.. أنت المجنون وأقسم على ذلك، لا عاقل يعيش من حنجرته كالنساء " (محفوظ، 2015، 69 – 71) .

لم تكن مروانة الغجرية في الرواية عاصية لربّها، بل كانت ضحية لشهوة جعفر وقد تأثّرت مروانة بالأحداث التي تلت الزواج كطرد جعفر من قصر جدّه وقطع مصروفه من ثروة الجدّ. كانت مروانة ترى الغناء للنساء وحدهن، وترى جعفر كالنساء لأنّ يعيش على حنجرته.

3 – 2 – 2. أحياء الغجر

في الرواية الواقعية نرى المكان يلعب دوراً مهماً في الشخصية والحوار والوصف، والمكان في الأدب بالرغم من أنَّه مجسّد في الأعمال الأدبية إلا إنّه لم يسلط عليه الضوء بوصفه آلية لدراسة هذه الأعمال إلا في القرن العشرين مع ظهور الرواية الواقعية "إنَّ المكان من السمات التي ميزتها حيث حددت العالم الحسي الذي تعيش شخصياتها وجسدته تجسيداً مفصلاً" (حفيظة، 2007، 119) . في رواية قلب الليل نرى أمكنة كثيرة يرويها جعفر الراوي ولكنَّه ضخّم وصف أحياء الغجر أكثر من باقي الأمكنة فيرى الأحياء التي تسكنها الغجر هي أكثر الأحياء شراً:

"كنا أول غريبين يشقان سبيلهما في عشش الترجمان نهاراً دون أن يتعرضا للموت. حدقت فينا أعين شريرة باستطلاع ساخر وتحد، وتوقفت الحركة دقيقة، حركة تدريب القرود وجز الأغنام ووزن المخدرات وجلاء الأدوات المسروقة ودقّ الطبول" (محفوظ، 2015، 59) .

نرى في هذا المقبوس توصيفات لعشش الترجمان إذ أنه تسكنه

الغجر، فيروي جعفر بأنَّه وشكرون أوّل من دخلَ في عشش الترجمان دون أن يقتلا ثم يصف أعين الشباب التي تتابعهم والأعمال التي كانوا منشغلين بها كوزن المخدرات وتحسّ بأنّك دخلت مكاناً حقيقياً ذلك أنَّ "المكان يعطي الانطباع بأنَّ النصّ حقيقي" (جنيت وآخرون، 2002، 75). وكان جعفر يلّقب حي الغجر بحي الشياطين لأسباب كثيرة ليست تلك التي ذكرها في المقبوس الأعلى فحسب، لأنّ عشش الترجمان يربّي الأطفال ليكونوا قتلة، جناة، إذ أنّ يتمنّى العجوز أن يكون مولود جعفر قاتلاً:

"تسحبني من يدي لزيارة أمّها وقريبها العجوز في معسكر الشياطين ليضحك المخرف ويقول لي: – ألم يكن الأفضل أن تعمل إماماً لجامع؟ أو يبارك بطن زوجتي قائلا للجنين: – شرفنا وكن قاتلاً، فقد ضقنا باللصوص والمهربين! ويسخر من أصلي الكريم قائلاً: مَن جدّك الراوي؟ أنا جدّك الحقيقي، واهبك هذه المرأة الجميلة التي تمتص قذائف غرائزك الشريرة.. فأقول له: جدّي من رجال **الله**.. فيقهقه قائلا: – نحن رجال **الله** حقا، **الله** المنتقم الجبار خالق الجحيم والزلازل، انظر إلى هؤلاء (مشيرا إلى معسكر المتشردين) إنّهم رجال **الله**، صورة منه في جبروته وانتقامه" (محفوظ، 2015، 66).

حي عشش الترجمان بالنسبة للغجري هو مكان أليف ولكن بالنسبة لجعفر الراوي ومحمّد شكرون فهو مكان غير أليف وخطير يحتوي المكان في رواية قلب الليل على دلالات متعددة منها: المكان المضاد، والمكان اللامتناهي، والمكان الأليف، وتعمّد نجيب محفوظ أن يعطي للمكان في روايته مكاناً أليفاً كي يستطيع أن يقرّب القارئ من بيئة الغجر لأنّ كينونة الإنسان ترتبط ارتباطاً عميقاً بالأمكنة الأليفة، فالمكان الأليف يمتلك جاذبية تشدّ الإنسان إليه" فالمكان الأليف قريب من النفس.. وصناعة الألفة تتمّ من خلال الملازمة والمشابكة بين الإنسان والمكان" (المستوني، 2013، 112). جعفر الراوي الذي تزوّج مروانة وعندما أخذت مروانة الأولاد ورجعت إلى عشش الترجمان:

"غير أن مروانة حسمت الأمر بطريقتها الخاصة فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خاليا لا يتردد فيه نفس، وذهبت من توي إلى عشش الترجمان فبلغتها مع الصباح الباكر. وجاءتني أم مروانة بوجه متجهم وقالت لي: اذهب بسلام وافعل ما يفعله الرجال ولو مرة! قلت لها: – الأولاد. قالت بازدراء: إنّهم أولادنا. وجاء العجوز في ثلة من الرجال المفترسين وقال: أنت رجل خائب فارجع إلى بيتك. وهمهم الرجال بألفاظ مبهمة فلم يغب عني الخطر المحدق بي. وعاد العجوز يقول: طلق، أعطها حقها كاملا، وإذا كان الشرع يعطيك حقوقا الآن أو مستقبلا فإنّي أنصحك بأن تتنازل عنها صونا لحياتك، ارجع قبل أن تطلع الشمس على وجهك فقد أقدم على شر كبير إذا رأيتك في ضوء الشمس. وذهبت من توى لأطلق. وأجلت التفكير في المشكلة لحين بلوغ البكرى السن التي أستحقه فيها، تأجيل أو هروب إذا شئت، كنت على يقين من أنّني لن أطالب بأولادي بجدية حقة، معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قوما يتخرج في معسكرهم عتاة مجرمي القاهرة" (محفوظ، 2015، 72 – 71).

بما أنّ المكان باعتباره القاعدة الأساسية في أي عمل روائي؛ لأنّه كلّ حدث يستلزم مكان يقع فيه؛ ولأنه عنصر ضروري لحيوية أي رواية ويُعدُّ "من أهم المحاور الروائية المؤثرة في إبراز فكر الكاتب وتحليل شخصياته النفسية" (عودة، 2006، 95). فنجيب محفوظ على الرغم من اختيار أسماء عديدة وأمكنة مختلفة من القصور إلى الخرابة والمقهى، إلا أن يبقى عشش الترجمان من أهمّ الأمكنة التي استخدمها في الرواية وبنى عليها شخصيات الغجر المتناسبة مع الحبكة.

3 ـ 3. السلطة السياسية

تطرقت روايات نجيب محفوظ إلى السلطة السياسية بكثافة ويبدو "أنّ الواقع العربي المعاصر الذي شهد سلسلة من الخيبات والانكسارات وبات المواطن العادي عاجزاً عن استيعابه أو تقبّله قد دفع بالأديب نجيب محفوظ إلى الانحياز بفنه إلى تمثيل واقعه تمثيلاً هدفه إيجاد صيغة واقعية مباشرة لتحليل الأحداث ودراستها، لذا فقد شعر بأنّ واقعاً كالواقع الذي يعيش فيه يحتاج إلى أداة جديدة تمثّل على الأقل الجانب الخفي المضطرب، الذي سمّاه غير المعقول بعد 1967" (شعلان، 2006، 61). بعد موت الراوي الجدّ، أخذت الحكومة، ممتلكات الراوي بعنوان وقف، ونقرأ حواراً بين موظف الوزارة وجعفر الراوي:

"فقلت بلطف: المسألة واضحة جداً، فوقف الراوي أكبر وقف خيري في الوزارة، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الإمام الحسين بالإضافة إلى جمعيات خيرية ومدارس وتكايا وأسبلة. والوقف الخيري لا يمكن أن يئول إلى شخص بحال من الأحوال. قاطعني بحدّة: ولكنّني حفيد الراوي، وريثه الوحيد، وإنّي في مسيس الحاجة إلى ملّيم على حين أنَّ الإمام الحسين غني بجنات النعيم. –ولكنَّه الوقف! . –سأقيم دعوى. – لإفائدة من ذلك... ولكنّني حفيد الراوي، وإثبات ذلك يسير عليّ. المهم أنَّ تركة الراوي أصبحت وقفا خيريا" (محفوظ، 2015، 7 – 8).

بما أنّ الجدّ طرد حفيده والوريث الوحيد لممتلكاته لأنَّه تزوج غجرية، في أواخر عمره ترك ما يملك إلى الوقف الحكومي، وهذا هو جعفر الراوي عاد من السجن بعد سنوات وبات يبحث عن سبيل للحصول على أموال جدّه، ولكن كان هناك عائق سياسي وقانوني بينه وبين الممتلكات. وعلى الرغم من غنى عائلة الراوي، ولكن السلطة الحكومية جعلت حفيد الراوي يلتمس المساعدة:

" – وهل من العدل أن أترك أنا للتسول؟

– المتفق عليه في الإدارة وهو المتبع في مثل ظرفك أن تقدم طلبا بالتماس صرف إعانة شهرية من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك.. جعل يردد: إعانة شهرية؟! يا لهم من مجانين ظالمين! وواصل قائلاً: صاحب الوقف يلتمس إحسانا! هذا جنون.. " (محفوظ، 2015، 8).

حاول نجيب محفوظ أن يبيّن حالة جعفر الراوي دون أن يحكم على الشخصية أو الوزارة فهذه ميزة الرواية الحديثة حيث إنّها لم تقف "عند حدّ وجود مظاهر غياب العدالة الاجتماعية، بل ذهبت إلى شرح الأسباب التي تؤدي إلى هذا الوضع المختل" (حسين، 2002، 201). وينتقد الوزارة من خلال حواره مع الموظف قائلاً:

"إنَّكم في الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثم تمدون أيديكم إلينا بالإحسان" (محفوظ، 2015، 12).

وبهذا التعبير والنقد لوزارة الأوقاف يبدأ الروائي بناءه الفنّي

برسم الصورة القاتمة للوضع الاقتصادي ونلاحظ أنّ السرد بعد ذلك يأتي بحديث عن التسوّل وكيف كان جعفر مشرّد ينام في الخرابات. ثمّ يأتي جعفر الراوي بقصة معرفته بالسياسة إذ أنّ الجماعة التي تعرّف عليها جعفر الراوي في بيت جدّه عرّفته على المصطلحات السياسية والدستور:

"وكان الحديث يدور كثيرا حول الدستور، لا باعتباره أساس الحكم للشعب، ولكن باعتباره وثيقة تمنحهم شرعية الحكم وتؤكد ذاتهم في مواجهة الحاكم، وكأنَّ الميدان لا يشغله إلا الحاكم والصفوة.. ألاحظ أنَّ السياسة مفسدة للعقل... في السياسة يجد العقل نفسه في محنة" (محفوظ، 2015، 95 – 98)

على الرغم من أنّ سلطة السياسة وتشرّد جعفر الراوي مرتبطتان في الحدث لكن الناظر في أحداث رواية "قلب الليل" يرى أنّ ما كان يحرّك الأحداث في غالبها، هو البحث عن المال، فسلطة السياسة وإن كان مضموناً مهماً، لكنّه لم يحرك الشخصيات في الرواية ما عدى جعفر الراوي، نلاحظ ذلك في العلاقات التي وقع بها جعفر الراوي بعد الزواج من مروانة الغجرية. ثمّ زواجه من هدى التي فتحت له مكتب للمحاماة حتّى صار يقرأ النظريات السياسية وينظر ولكنَّها لم تؤثّر على الحبكة كما نرى تأثير حضور مروانة في الرواية.

3 ـ 4. السلطة المالية

يُعَدُّ البعد الاقتصادي والمالي من أهمّ العوامل المؤثرة في المجتمع وتكوينه، فجولدمان يرى أنَّ الرواية "هي العمل الأدبي، الذي يعكس الحياة اليومية في مجتمع يطبق نظام السوق" (عبدالسلام، 1993، 82 – 83) . رواية "قلب الليل" رواية تروي للمتلقّي هوية الإنسان وطبقات النفس الإنسانية مثلما هي عن طبقات بناء السلطة في المجتمع المصري وأهمّها سلطة المال. الحبكة تأتي من خلال حوار لموظف حكومي في وزارة الأوقاف ورجل مسن مشرّد وسخ يعيش في خرابة يدّعي بأنَّه حفيد الراوي ويجب أن تردّ الوزارة الأملاك التي أعطاها جدّه للوقف، ثم يطلب الموظف من هذا الشخص المدعو "جعفر الراوي" سرد حكايته فيأتي بالحكاية من بيت أمّه الفقيرة التي ماتت في بداية الرواية كما مات والده لينتقل إلى العيش في قصر جدّه الثري، فهنا نرى حياتين متناقضتين: حياة الفقر وحياة الترف، ثمّ لأجل مروانة يترك حياة الترف ليعيش مجدداً حياة الفقر حتّى تتركه مروانة ويتعرف على "هدى صديق" فهذه الشخصيات الثلاثة منقسمة في واقع منقسم، فنرى المال جزء لاينفك من الواقع الاجتماعي رغم أنّ شخصية جعفر لم يبوح بأهمية المال ولكن يرى أنّ المال له أسباب في شمل العائلة:

"أين تسكن؟ – أبيت في الخرابة.. هي ملكي، وهي ما تبقى من بيت جدّي القديم! –أليس لك أهل؟ – لعلهم يملئون الأرض.. لي أبناء قضاة وأبناء مجرمون.. أتعني ما تقول؟ – اسمع، رد إليّ الوقف أعدك بأن تراني محاطا بالأبناء والأحفاد، وإلا فستجدني دائماً وحيداً طريداً.. " (محفوظ، 2015، 9 – 10) .

ربط جورج لوكاتش أشكال الوعي كافة بالبنية الاقتصادية المحددة لها، ففي كتاباته عن بلزاك وإميل زولا كشف عن العلاقة الجدلية بين دلالات الأعمال الإبداعية الكبرى ودلالات البنيات الاجتماعية" (الحجوج، 2010، 30) . وكان جعفر الراوي بعد أن ترك نعيم القصر أصبح فقيراً:

"طيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنبيذ والمنزول وشعرت بأنَّ المعركة تستغرقني من الفجر حتى الفجر" (محفوظ، 2015، 67) .

تنوعت رواية "قلب الليل" في وصف الطبقات الاجتماعية فهذه خصال الرواية العربية الحديثة إذ أن "لم تراوح مكانها، ولم تعد أسيرة ارتباطها بالطبقة الوسطى، بل تعدّدت وتنوعّت، وطوّقت طبقات اجتماعية أخرى، معبّرة عن همومها وأحوالها" (امين، 1993، 16 – 17) . وكان محمّد شكرون يعرّف هدي صديق قائلاً:

"إنَّها من آل صديق، كريمة الرجل العظيم، أرملة واسعة الثراء والثقافة" (محفوظ، 2015، 76) .

ففي هذا النصّ تأتي مفردة الثقافة بعد الثراء لكي يبيّن الروائي صلة الثروة بالثقافة والإسم الذي تمتلكه الشخصيات. والسلطة المالية تجعل الراوي يصف شخصية هدى وبجنبها امرأة سوداء يسميها بالوصيفة:

كان محمّد شكرون يحيي حفلاً في حديقة لبتون، وفي الاستراحة دعى مع أفراد تخته إلى مقابلة هدى هانم صديق في بنوارها، وكانت تنتظرنا وعلى شفتيها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس سيدة شديدة السمرة بدا من تأدبها أنّها وصيفة" (محفوظ، 2015، 74) .

الفضاء الذي وصفه الروائي المحيط بهدى مرتبط بالمال والثروة، فقد تمتلك وصيفة؛ لأنّها تمتلك الأموال. ويكرر اللفظ من لسان محمّد شكرون:

"فتساءلت متخابثا: أي أمر أيها البلبل؟ – لا تتغاب، عرفت من وصيفتها أنّهم عرفوا عنك كلّ شيء" (محفوظ، 2015، 78) .

وكانت الوصيفة دائماً بجنب هدى هانم:

"جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست أم حسين الوصيفة غير قريب" (محفوظ، 2015، 81) .

والسلطة المالية تجعل المرء ينجح في حياته:

"تقدمت في الدراسة، أحرزت النجاح بعد النجاح، اتسعت مداركي، تنوعت ثقافتي، أنجبت أربعة ذكور، عشت فترة تُعتبر من أغنى وأسعد فترات حياتي" (محفوظ، 2015، 93) .

عاش جعفر الراوي حياة فقر وضياع مع أمّه عندما كان طفلا ثم انتقل إلى القصر ليعيش حياة ثرية وتراه الأطفال هو الثري الذي يجب أن يشتري لهم الحلوى كما فعل محمّد شكرون وقال له: "إنّك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنيا مثلك أن يشتري لنا الملبن الأحمر والسوبيا" (محفوظ، 2015، 38) . ثم بعد أن عشق مروانة وتزوج منها، طُرد من القصر وانقطع المصروف من جانب جدّه وبدأ الغناء والطرب مع فرقة شكرون، حتّى تعرّف على هدى صديق التي أعطته كلّ شيء يحتاجه الرجال حتّى صار في وضعية تحقده بعض الجماعات لأنّهم يرونه من ضمن الطبقة الإقطاعية حتى يقول:

"ورغم عواطف الصداقة المتبادلة فإنّني لم أشك في أنَّ بعضهم ينظر إلى وضعي الطبقي نظرة عدائية أصيلة، وبالتبعية

جعلت أنظر إلى هذا الوضع باعتباره مثار نزاع سياسي اجتماعي.. فإنّني بصفتي حفيد الراوي أنتمي إلى الطبقة الإقطاعية وعليه فمصلحتي تتفق مع حكم الصفوة، ولعلها لا تتناقض بحدّة مع السلفية الدينية" (محفوظ، 2015، 98) .

يصف نفسه بالإقطاعي ولكن شخصية جعفر الراوي لم تكن إقطاعية بمعنى الكلمة ويسمي نفسه بالإقطاعي تيمّناً بجدّه؛ إذ إنَّ شخصية الإقطاعي تسعى إلى "الاستيلاء المطلق على معظم الأراضي الخصبة، وسوء توزيعها ممّا أدّى إلى ظهور طبقة طفيلية تقاسمت مع المعمرين كلّ الأراضي الزراعية.. " (بشير بوجويرة، 1970، 13) . وكان سيد الراوي ممن امتلك أراضي وممتلكات على الرغم من أنّ الروائي لم يصنّفه من طبقة معينة.

3 ـ 4. السلطة الدينية

كان يرى جعفر الراوي، أنّ المسائل الدينية لا تأتي للسلطة على الفرد ولا تمنع الفرد من ممارسة حقّه في المعرفة والنقد والسؤال رغم أنّ تمثّلات السلطة الدينية لها مريدوها ومستعملوها كما أنّ للدين أولياؤه ومعتنقيه ولايريد الدين وسيلة بيد أنّ "من يسعى بالدين للسلطة جدير به فهم أبجديات الدين والوعي به والعمل بتعاليمه استنشادا لخير البلاد والعباد لا أن يكون الدين وسيلة للامتلاك" (أوغرب، 2016، 138) . دقّت رواية "قلب الليل" بحروفها على نموذج السلطة الدينية بالعوالم التي استطاع الكاتب تصويرها، وذلك بحديثه عن جعفر الراوي وجدّه ومحمّد شكرون والغجر وهدى صديق وسعد الكبير، كصورة واقعية مصغرة لمجتمع كبير في واحدة من أوجه صراعاته على السلطة.

"ورتب لي منذ أول يوم مدرسا يعلمني مبادئ الدين واللغة والحساب. لقنت مبادئ دين جديد غير الدين الذي تلقيته على يد أمّي، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح، أمّا هذا فدين يبدأ بالتعلم والجدية، حفظ سور وشرحها، إلمام بالقواعد، ممارسة الصلاة والصيام، دين نظري وعملي، ومدرس جاد يرفع التقارير لجدّي أسبوعا بعد أسبوع" (محفوظ، 2015، 33) .

سيد الراوي جدّ جعفر كان يعرف أنّ سلطة المال والسلطة الأسرية تحتاج لتكملة لتكون أرسخ في مجتمع تدور السلطة بين المال والسياسة والدين لهذا طلب من جعفر حفيده أن يدرس علوم الدين وإنّ السلطة الدينية "أن يدّعي إنسان ما لنفسه صفة الحديث باسم الله وحقّ الانفراد بمعرفة رأي السماء وتفسيره، وذلك فيما يتعلق بشؤون الدين أو بأمور الدنيا وسواء في ذلك أن يكون هذا الادّعاء من قبل فرد، يتولى منصبا دينياً أو منصبا سياسياً وسيان كذلك أصدرت هذه الدعوى من فرد أو من مؤسسة فكرية أو سياسية" (عمارة، 1988، 14) . لهذا كان الجدّ يطلب من جعفر إكمال مسيرة الدين:

" – الأهم من ذلك أنك تمضي في طريق النقاء بخطى ثابتة... وقلت لجدي: أريد أن أهب حياتي للدين، لا أدري كيف، ولكنني غير متحمس لأي عمل كالوعظ أو التدريس أو غيرهما" (محفوظ، 2015، 42)

جرى تصوير الجد بصورة سلطوية لايتكلّم إلا وأن يطلب أمراً وجرى تصوير الحفيد رغم وحدته ورغم عدم وجود منافس له على كرسي الوراثة متقلب الأحوال، ولا يبقى على حال من الأحوال وبما أنّ في بداية الرواية كان يبحث عن علوم الدين ليصبح صاحب الحضرة والطريقة، بمجرد رؤية مروانة الغجرية ترك هذا المسير وخلع لباس الدين ليبقى الجدّ يبغضه لنهاية الرواية وأن يهدي جميع ممتلكاته لوزارة الوقف ليعيش جعفر بعده حياة المشردين. وكانت السيدة "هدى صديق" من تلك النساء التي معجبة بالفن ومن عائلة تحبّ الفن، وعندما قدّم محمّد شكرون صديقه جعفر إلى السيدة تعجبت وسألت:

"فقال محمّد شكرون مشيراً إليّ في مباهاة: زميلي جعفر حفيد الراوي.

فتساءلت باهتمام: حقّاً؟!

– إنّه يهيم معنا حبّاً في الفن..

– جميل، ولكن هل يرضى الراوي الكبير عن ذلك؟ " (محفوظ، 2015، 75) .

في هذا النصّ كان تعجّب المرأة من حيث السلطة الأبوية وهو السؤال الذي تكرّر كيف لجعفر يخالف جدّه؟ وهل تسمح عائلة الراوي بالغناء لجعفر؟ وكان جعفر الراوي قد فقد ثقته بالدين، لأنَّه كان يرى بأنَّ الدين يسلب الحرية:

"تزعزعت ثقتي بالإيمان الخالص كما تزعزعت في لغة القلب" (محفوظ، 2015، 92) .

جعفر الراوي الشخصية الذي لعب دوراً فعالاً في الرواية واستطاع دراسة الدين، والفقه، والقانون يبيّن مدى عبقريته وقوة حفظه، وفي الجانب المظلم من هذه الرواية هي عدم الثبات والتقلبات الخطيرة التي كان يبحث عنها جعفر، فقد كان يحب أن يخوض تجربة رغم ضررها الكبير. ورغم أن تزعزعت معنوياته ولكنّه كان يرى أن لا مفر من الدين:

– "ماذا عن إيمانك اليوم يا جعفر؟

– إنّي عاجز عن الكفر بالله" (محفوظ، 2015، 93) .

كان الخطاب الديني في الرواية المصرية من أهم وأكثر الخطابات على اختلاف تمثّلاته وظهوره وكان نجيب محفوظ قد حشّد للسلطة الدينية طاقاته الإبداعية ووظف شخصيات دينية واستثمر هذا الحضور لتوصيف الواقع المصري بعيداً عن الانحياز والدفاع وتاركاً القارئ في محطات القياس فالروائي أو المبدع والأديب والشاعر"جزء من هذا المجتمع يؤثّر فيه ويتأثّر به، فالنصوص الأدبية التي تصلنا في شكل روايات أو خطابات شعرية مقرونة في جوهرها بالتعبير عن الآخر والسعي نحو إبراز همومه ومشاكله الذاتية والفكرية" (بوعزة، 2020، 216) . لهذا نرى نجيب محفوظ هو الناقل للواقع المصري والأفكار التي يتلقاها الفرد المصري من خلال العقيدة وتقلباتها في السلطة الدينية.

4. النتائج

رواية قلب الليل من تلك الروايات التي تظهر للقارئ الجانب الخفي من المجتمع المصري والسلطة التي تفرض نفسها على الفرد في المجتمع، وقد نجح نجيب محفوظ من خلال شخصية "جعفر الراوي" وشخصيته المتقلّبة والطامحة للتغيير أن يبيّن للمتلقّي كلّ أنواع السلطة المفروضة منها السلطة الأبوية، والسلطة السياسية،

والسلطة الدينية، والسلطة المالية، من حيث إنَّ الفرد في المجتمع لا يستطيع مخالفة رب الأسرة ويجب أن يطيع الأوامر على رغم الإكراه كما نجد السلطة الأبوية في المجتمع المصري مدعومة بنصوص دينية ونسق اجتماعي وأعراف قُبلت من قبل الأفراد والمؤسسات سيما الاجتماع الذي يعيشه الفرد ولا يمكن أن يتجاوزها الفرد، وكانت هذه السلطة قد تمثلت في شخصية "السيد الراوي" جدّ جعفر الراوي إذ أنَّه مثّل السلطة الأبوية والهوية التي تقلّد بها ليست الهوية العربية أو المناطقية بل هوية الأسرة والجاه والثرى. كما نرى السلطة الدينية التي تفرض نفسها وتتطلب احتراماً خاصاً بهيئة الدين وأصوله وما أن يخالف المرء أحد البنود سيترك من المجتمع الديني كما طُرد جعفر وخلع لباسه الديني بسبب حبّه لمروانة، وأمّا السلطة المادية والمالية من أهمّ الأمور في الرواية وقد يجتمع الشرف والجاه والاحترام للفرد متى ما كانت المادة، ويفقد الشرف والجاه والاحترام بفقد هذه السلطة كما رأينا جعفر الراوي عاش حياة فقر، ثم حياة رفاهية، ثم حياة فقر، ثم حياة رفاهية وفي الأخير بات مشرداً مطروداً من الأبواب، فالسلطة المادية أهمّ الركائز في رواية "قلب الليل" ولم يغفل الروائي من الأمر السياسي والسلطة التي فُرضت على جميع أفراد المجتمع وأخذت حصة الأسد من باقي السلطات لأنّها مدعومة بأفراد الحكومة والدستور والقانون. وكان احتكاكاً بين العرب والغجر إذ أنَّ العرب لا تقبل الغجر وبالعكس عند الغجر أيضاً كذلك، فلم يعترف الفرد الغجري بالفرد العربي.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر والمراجع العربية:

- أحمديان، حميد. (2014) . مناهج النقد الادبي العربي المعاصر (عملي – تطبيقي) ، ناشر: جامعة اصفهان وسمت.
- الأخرس، محمّد صفوح. (1997) . نموذج استراتيجية الضبط الاجتماعي في الدول العربية، الرياض: لانا.
- أمين، محمود. (1993) . الرواية بين زمنيتها وزمنها مقاربة مبدئية عامة، مجلة فصول الربيع، المجلد 12، العدد الأول.
- أوغرب، عبدالله. (2016) . "تجليات السلطة الدينية في الرواية الجزائرية قضاة الشرف لعبدالوهاب بن منصور أنموذجا"، المؤتمر الدولي: الرواية العربية في الألفية الثالثة ومشكل القراءة في الوطن العربي، صص123 – 144.
- بشير بوجويرة، محمّد. (د. ت) . الشخصية في الرواية الجزائرية 1970 – 1983، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بوتفنوشت، مصطفى. (1984) . العائلة الجزائرية، التطور (خصائص الحديثة) ، ترجمة: دمري أحمد، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية.
- بوريكو، ر. بودون. في. (1986) . المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ط1، ترجمة: سليم حداد، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- ترابي، عبدالقاسم، وسيد حسين سيدي. (2014) . "روايات نجيب محفوظ في ضوء النقد الاجتماعي مع عناية خاصة برواية أولاد حارتنا"، إضاءات نقدية، السنة الرابعة، العدد13، صص125 – 146.
- جنيت وآخرون. (2002) . الفضاء الروائي، ترجمة: عبدالرحيم حزل، المغرب: إفريقيا الشرق.
- حافظ، صبري. (1981) . "الأدب والمجتمع" مجلة فصول، القاهرة، العدد2، صص60 – 80.
- الحجوج، هشام محمّد. (2010) . علاقة الرواية العربية بالحدث السياسي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة مؤتة: قسم اللغة العربية وآدابها.
- الحديثي، طه حمادي. (1979) . الغجر والقرج في العراق: دراسة مقارنة في الجغرافية الاجتماعية التطبيقية، ط1، الموصل: نشر جامعة الموصل.
- حسين، عمار علي. (2002) . النص والسلطة والمجتمع القيم السياسية في الرواية العربية، ط1، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.
- حطيم، علي حسين. (2013) . "السلطة الأبوية في الأسرة العراقية المتغيرة"، مجلة الأستاذ، العدد 203، العراق.
- حفيظة، احمد. (2007) . بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية دراسة نقدية، ط1، فلسطين: مركز أوغاريت الثقافي.
- خرفي، محمّد صالح. (2013) . الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة روايات الطاهر وطار أنموذجا، مجلة قراءات، العدد الخامس، جامعة محمّد خيضر بسكرة.
- زرينكوب، عبدالحسين. (1982) . نقد ادبي، تهران: اميركبير.
- سعاد، رحماوي. (2015) . المرأة في رواية نجمة، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، تلمسان الجزائر.
- شعلان، سناء. (2006) . الأسطورة في روايات نجيب محفوظ، ط1، القاهرة: نادي الجسرة الثقافي والاجتماعي.
- الشيخ، جقاوة، ولعلى بوكميش. (2018) . "السلطة الأبوية داخل العائلة الجزائرية"، مجلة الحقيقة، العدد43، صص 730 – 758.
- صالح، مفقودة. (2009) . المرأة في الرواية الجزائرية، ط2، الجزائر: دار الشروق.
- عبدالسلام، ابن عبدالعالي. (1993) . النص والسلطة والمجتمع: الميتافيزيقيا –العلم – الأيدلوجيا، ط2، بيروت: دار الطليعة.
- عمارة، محمّد. (1988) . الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، القاهرة: دار الشروق.
- عودة زعرب، صبيحة. (2006) . جماليات السرد في الخطاب الروائي غسان كنفاني، ط1، عمان: دار مجدلاوي.
- غرين، ويلفرد. (2006) . مباني نقد ادبي، ترجمه: فرزانه طاهري، ط4، تهران: انتشارات نيلوفر.
- قصّاب، وليد. (2007) . مناهج النقد الأدبي الحديث، رؤية إسلامية، ط2، دمشق: دار الفكر.
- ماضي، شكري عزيز. (2005) . في نظرية الأدب، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- محفوظ، نجيب. (2015) . قلب الليل، ط4، القاهرة: دار الشروق.

- المستوني، مثنى عبدالله. (2013) . حركية الفضاء في الشعر الأندلسي (نصوص ابن زيدون الشعرية أنموذجاً) ، ط1، عمان: دار مجدلاوي.

ثانياً: ترجمة المصادر والمراجع العربية:

- *Ahmadian, Hamid. (2014) . Curricula of the Contemporary Arab Literary Criticism (Practical - Applied) , Publisher: University of Isfahan and Smit.*
- *Al - Akhras, Muhammad Sufouh. (1997) . Social control strategy model in the Arab countries, Riyadh: Lana.*
- *Amin, Mahmoud. (1993) . The novel between its temporality and its time: a general tentative approach, Fosoul al - Rabee` magazine, Volume 12, Number One.*
- *Ogarb, Abdullah. (2016) . "Representations of Religious Authority in the Algerian Novel, Judges of Honor by Abdelwahab bin Mansour as a Model", The International Conference: The Arab Novel in the Third Millennium and the Problem of Reading in the Arab World, pp. 123 - 144.*
- *Bachir Bouguera, Mohamed. (N. D) . The Character in the Algerian Novel 1970 - 1983, Algeria: Diwan of University Publications.*
- *Boutefnouchet, Mustafa. (1984) . The Algerian family, evolution (modern characteristics) , translated by: Dmri Ahmed, Algeria: Diwan of Algerian Publications.*
- *Borrico, R. Beaudon. Fi. (1986) . Critical Dictionary of Sociology, 1st Edition, translated by: Salim Haddad, Algeria: Diwan of University Publications.*
- *Turabi, Abdel - Qassem, and Seyyed Hussein Sidi. (2014) . "Naguib Mahfouz's novels in the light of social criticism, with special attention to the novel "The Children of Our Neighborhood", Critical Illuminations, Fourth Year, Issue 13, pp. 125 - 146.*
- *Jennet et al. (2002) . The Narrative Space, translated by: Abdel Rahim Hazal, Morocco: Africa of the East.*
- *Hafez, Sabri. (1981) . "Literature and Society" Fosoul Magazine, Cairo, No. 2, pp. 60 - 80.*
- *Al - Hajouj, Hisham Muhammad. (2010) . The relationship of the Arabic novel to the political event, a thesis submitted to obtain a master's degree, Mutah University: Department of Arabic Language and Literature.*
- *Al - Hadithi, Taha Hammadi. (1979) . Ghajar and Qarg in Iraq: A Comparative Study in the Applied Social Geography, 1st Edition, Mosul: Mosul University Publishing.*
- *Hussein, Ammar Ali. (2002) . Text, Power and Society, Political Values in the Arabic Novel, 1st Edition, Cairo: Center for Political and Strategic Studies.*
- *- Hatim, Ali Hussein. (2013) . "Patriarchal Authority in the Changing Iraqi Family", Al - Ustad Magazine, No. 203, Iraq.*
- *Hafida, Ahmed. (2007) . The structure of discourse in the Palestinian women's novel, a critical study, 1st Edition, Palestine: Ugarit Cultural Center.*
- *Kharfi, Muhammad Salih. (2013) . Religious and Ideological in the Contemporary Algerian Novel, Novels of Taher Watar as a Model, Qiraat Magazine, Issue Five, Mohamed Khider University of Biskra.*
- *Zarenkop, Abdul - Hussein. (1982) . Literary criticism, Tehran: Amir Kabir.*
- *Souad, Rahmaoui. (2015) . The Woman in the Novel of a Star, memorandum submitted to obtain a master's degree, Faculty of Arts and Languages, Department of Arabic Language and Literature, Tlemcen, Algeria.*
- *Shaalan, Sana. (2006) . The Legend in the Novels of Naguib Mahfouz, 1st Edition, Cairo: Al - Jasra Cultural and Social Club.*
- *Sheikh, Jagawa, and Lula Bukemish. (2018) . "Patriarchal authority within the Algerian family", Haqiqa magazine, No. 43, pp. 730 - 758.*
- *Saleh, Mafquda, (2009) . The Woman in the Algerian Novel, 2nd Edition, Algeria: Dar Al - Shorouk.*
- *Abd al - Salam, Ibn Abd al - Ali. (1993) . Text, Authority and Society: Metaphysics - Science - Ideology, 2nd Edition, Beirut: Dar Al - Tali'a.*
- *Amara, Muhammad. (1988) . The Islamic State between Secularism and Religious Authority, Cairo: Dar Al - Shorouk.*
- *Odeh Zorob, Sabiha. (2006) . The Aesthetics of Narration in the Discourse of the Novelist Ghassan Kanafani, 1st Edition, Amman: Majdalawi House.*
- *Greene, Wilfred. (2006) . Buildings of Literary Criticism, translated by: Farzana Taheri, 4th edition, Tehran: Niloufar publications.*
- *Kassab, Walid. (2007) . Modern Literary Criticism Curricula, An Islamic Vision, 2nd Edition, Damascus: Dar Al - Fikr.*
- *The past, Shukri Aziz. (2005) . In Theory of Literature, 1st Edition, Beirut: The Arab Foundation for Studies and Publishing.*
- *Mahfouz, Naguib. (2015) . The Heart of the Night, 4th ed. , Cairo: Dar Al - Shorouk.*
- *Al - Mastoni, Muthanna Abdullah. (2013) . The dynamics of space in Andalusian poetry (Ibn Zaydoun's poetic texts as a model) , 1st Edition, Amman: Majdalawi House.*